الاسلام والتيارات الفكرية العالمية

معالي الأستاذ محمد المبارك

ان في العالم اليوم تيارات فكرية تنشط وتتحرك وتغزو وترتكز عليها مجتمعات وتقوم على فلسفتها شعوب وتكوّن الرابطة بين أفراد هذه الشعوب وتنبثق عنها نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية وتربوية .

ولسنا نعني الآن الأفكار الجزئية الخاصة بموضوع معين لأنها ليست إلا فروعاً لأصول وثمرات لشجرة ، ولكننا نقصد مجموع الأفكار التي تكون تياراً عاماً ومذهباً شاملاً والتي يمكن أن تسمى (معتقدات أو مذاهب عقائدية) ، وتتولد منها نظم سياسية واقتصادية واجتماعية .

ويهمنا أن نعرف موقف المسلمين منها في الواقع وموقفهم الواجب ؟ وكيف غزتهم وإلى أي حد تأثروا بها ؟ وهل تتعارض مع الإسلام أم لا ؟ وإذا كانت تتعارض معه فهل هذا التعارض كلي شامل وأصلي أم جزئي عارض ؟ وهل يكوّن الإسلام اليوم تياراً فكرياً ، كذلك يتحرك وينشط ؟ وهل حركته هذه في حدود البلاد الإسلامية فقط أم في النطاق العالمي ؟ أعتقد أن هذه الأسئلة هامة جداً ، وأن الإجابة عليها تحدد موقفنا نحن المسلمين في العالم ، موقفنا الذي نختاره لأنفسنا، وعلى أساسه نرسم لحياتنا الخطط في المجال العقائدي، وفي المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وغيره .

إن هذه التيارات التي نشير إليها نشأت كلهـا في الغرب ، ولا تزال كذلك مصادر التبشير بها ونشرها في الغرب ، كذلك ولا بد لنا لفهمهـا ثم فهم مدى تأثرنا بها والحكم عليها من إلقاء نظرة على ظروف نشأتها التاريخية الاجتماعية في البلد الذي نشأت فيه ...

نقطة البداية في نشوء هذه المذاهب الفكرية في أوربا والفاصلة في تاريخهـا كانت في النهضة العلمية والفكرية التي تولدت باتصال أهـل أوربا بالحضارة الإسلامية عن طريق الأندلس وصقلية ، وترجمت كتب العلوم والفلسفة إليها ، وكانت خسارة البشرية هنا بالضبط في انهم أخـذوا الجانب العقلي والمادي من حضارة المسلمين ولم يأخـذوا الجانب العقائدي والروحي الخلقي – وعجزت النصرانية التي كانت ديانتيم عن حمل لواء هذه النهضة العلميـة بل عن مجاراتها ومصاحبتها ، وعجزها كان من جهة لما أصابها من تشويه ، ولأن الله منذ البداية لم يجعلها ديناً عاماً خالداً ، بل قضى عليها بأن تنسخ بديانة خاتمـة ناسخة .. فقامت النهضة الأوربية على أساس الجانب العقائدي وحده وأهمل فيها الجانب الروحي من الإنسان وأهملت التعاليم الإلهية وما تضمنته من المثـُـل العليا العظيمة والقيم الخلقيـة الرفيعة ، وبقي الإنسان يخترع لنفسه عقائد وحقائق وفضائل ومثلاً غير تلك التي جاءت بها النبوات وتعاليمها الالهيـة .. فاتخذ العقل وهو بخلقته محدود أساساً للحكم على الحقائق كلها الحسية منهـا والغيبية ، وجعلت الحواس والتجربة المادية وسيلة وطريقاً للوصول إلى هـذه الحقائق ، فكان الاتجاه العقلي والمادي الطبيعي ، وكانت الفلسفات الموصوفـة بالعقلانية والمادية في آن واحد .. وأدى هـذا الاتجاه الفكري المحض الى حركة علمية عقلية لا تصاحبها نهضة خلقية روحية اللهم إلا بقايا باهتـة ضعيفة من دين متوارث قديم بدلته الأيام ولعبت به الاهواء والمصالح ، وجعلته في موقع غير مرغوب ولا جذاب. وأعقبت الحركة العلمية نهضة صناعية مهدت لها الاكتشافات العلمية ، وكان من نتائجها اتخـاذ الرفاهية المادية ، واشباع الشهوات وتحقيق

الملذات غاية للإنسان، وكان ذلك نتيجة للنهضة الصناعية ومنتجاتها ولتحرر العقل تحرراً لا يضبطه ضابط ولا رادع . ولرد الفعل تجاه النصرانية التي كانت تنفر الناس مما أحل الله لهم من الطيبات ومتع الحياة .

وهكذا اشتد الاتجاه العقلي من الناحية الفكرية والعقائدية في نطاق عام يشمل مجال الطبيعة وعالم الشهادة ومجال ما وراء الطبيعة وعالم الغيب ومجال الأخلاق والقيم الخلقية . كما اشتد من جهة أخرى الاتجاه المادي في الحياة العملية فكانت اللذة والمنفعة غاية سعيهم في الحياة، وبدأ الدين بمعتقداته وقيمه الخلقية، وفضائله ينحسر شيئاً فشيئاً ، وبدأ يخلو مكان الحياة للروحية والخلقية ، وبدأ الخلل يزداد كلما تقدم الزمن، ثم حلت رابطة جديدة تربط أفراد الشعب الواحد بعضهم ببعض، وهي رابطة انتمائهم الى وطن واحد ، وكانت فرنسا وهي يومئذ الدولة الاوروبية الاولى من حيث القوة والازدهار ، وذلك لانها بسبب قربها من الاندلس والحضارة الإسلامية هي التي بدأت فيها النهضة، وفي فرنسا عروق قومية مختلفة الاصل من فرنك وسليتين وغوليين وغيرهم ، وفيها كذلك عقائد مختلفة من نصارى كاثوليك الى بروتستانت ومن يهود إلى ملحدين، ولهذا اتخذت (الوطنية) رابطة عامة تجمع الافراد وهي ليست مذهباً يفرض عليهم ولكنها اطار تتفاعل فيه عقول الافراد المنطلقة بلا حد ولا قيد ، ومنافعهم ومصالحهم المختلفة وجميع ضروب نشاطهم فهي تقوم في أساسها على الفرد في مجال التفكير وفي مجال العمل والسلوك ، فنشأ في نطاق الوطنية المذهب العقلي في التفكير والمذهب الفردي في الاقتصاد وهو الذي أطلق فيما بعد (المذهب الرأسمالي والنظام الديموقراطي) القائم على الحرية السياسية الفردية المطلقة التي تنسقها الاحزاب السياسية والمجالس النيابية ، كما نشأت فيها الاباحية في المجال الاخلاقي القائمة على الحرية التي لا تحدها كذلك حدود والعلمانية أو فصل الدين عن الدولة واللادينية لانها قامت على الفراغ الديني وعلى اطلاق الحريات بلا حدود .

ولم يَبْدُ النقص الكبير إلا بعد تجربة طويلة دامت أكثر من قرن ونصف ، فظهر أن الحرية في المجال الاخلاقي انتهت إلى الفوضى والتهديم والاباحية ، وما أخبار الخنافس القذرين والهبيين المجرمين عنا ببعيدة ، وانتهت الحرية المطلقة في الاقتصاد الى ظلم الاغنياء للفقراء ، وانتهت الحرية المطلقة في الفكر الى تهديم الحقائق الدينية الخالدة والى اعتبار الانسان المخلوق الذي نفخ الإله فيـــه من روحه وكرمه حيواناً يمتاز بنوع من الذكاء وتجاوز العقل حدود قدرته فغطى وأقام نفسه في مقام الاله وتعددت الآلهة بتعداد العقـــول ، وانتهت الحرية السياسية إلى الازمات المستمرة في الحكم وإلى أزمة النظـام الديموقراطي نفسه كما انتهت كذلك من الناحيـــة التشريعية التي اعتبر الإنسان مصدرها المطلق والاعلى الى تشريعات تبيح الرذائل التي لم يبحها المتوحشون والابتدائيون في ابعد العهود عن المدنية ..

ان تيار المذهب العقلي المادي والمتمثل في مذهب الوطنية والمولد للنظام الديمقراطي والرأسمالي والعلماني تكشف عن نقائص فاضحة وانتهى الى الصراع والاستعمار والظلم واثرة (الانانينية) والرذيلة والاباحية والقلق والضياع .

وقد كان هذا المذهب في وجوهه الفكرية الفلسفية والسياسية والاقتصادية والاخلاقية والتربوية مقدمة المذاهب الفاسدة واولها اتصالاً بالشعوب الإسلامية وتأثيراً فيهـــا وغزوا للطبقة المثقفة ولقادة السياسة في جميع البلاد الإسلامية وذلك عن طريق انتقـــال الثقافة الفرنسية إلى الدول العثمانية والى مصر في عهد محمد علي ، والمغرب وعن طريق الثقافة الإنكليزية في الهنـــد ومصر والسودان .

فقد غزا هذا التيار الشعوب الإسلامية التي كانت قـــد تردت في دركات التخلف بسبب تشويهـــا للإسلام وابتعادها عن كثير من تعاليمه وعن وعي

أهدافه ومقاصده . فتسلل المذهب العقلي العلماني اللاديني والمادي التجريبي إلى عقول الطبقة المثقفة . والمذهب الوطني الديمقراطي العلماني إلى الطبقة السياسية الحاكمة. وكانت النتيجة إقصاء الإسلام وعزله عن توجيه الحياة الفكرية والثقافية واقصاؤه كذلك عن توجيه الحياة السياسية في مفاهيمها وقيمها ، وفي اتجاهاتها ومواقفها في الاحداث الداخلية والدولية وفي تشريعاتها ونظمها ، ولكن تم ذلك برفق ولطف فبقي الدين تقاليد وعادات في الجمهور والعامة وبقي رقعة في التعليم ، الذي يتجه في أعماقها لاقتلاعها ونبذها، ومظاهر في المجال السياسي لمجاملة الجمهور في الحفلات والاعياد والمواسم .

أقول ان ذلك تم برفق ولطف لا يشعره بخطره ولا بنتائجه لان معارضة هذا التيار للدين لم تكن ظاهرة بل كانت محاولات التوفيق والتقريب تلتمس المخارج والمسوغات وتنشر شعارات وعبارات تشعر بالقربى والتوافق بين هذا الاتجاه والإسلام ، فشاعت عبارات مثل قولهم (حب الوطن من الإيمان) و (الدين لله والوطن للجميع) و (الإسلام دين الحرية) ، واستغلت هذه الشعارات اسوأ استغلال لتحريف الكلم عن مواضعه وتغيير المفاهيم الإسلامية بطريق الإزاحة التدريجية لا بطريق المعارضة ، وخفي على كثير من الخاصة خطورة نتائج هذه المرحلة فشارك فيها كثير من أصحاب النية الطيبة والعقيدة المؤمنة .

ان هذه المرحلة التي عندنا اليوم ندرك خطورتها لوضوح الرؤية بالنسبة الى الناظرين اليها عن بعد يمكّنهم من رؤيتها دون التأثر بسحرها هي بداية حركة اقصاء الإسلام ، وهي مرحلة اختلطت فيها الافكار الاسلامية بالافكار غير الاسلامية ، والحركات الطيبة الصالحة بالحركات المشبوهة المدفوعة بدوافع سيئة . وكان لهذه المرحلة ولا شك فوائدها ومحاسنها كما كان لها مضارها ومفاسدها ،

وكان أبطالهـــا وروادها مزيجـاً عجيباً من الصالحين المخلصين والمفسدين والمدسوسين .

التيار القومي

تطورت الفكرة الوطنية التي ظهرت في القرن الثـامن عشر في فرنسا أثر ثورتها المعروفة إلى الفكرة القومية بعد نحو من قرن في بعض الشعوب الأوروبية فانتقلت الرابطة في داخل بعض الشعوب من رابطة الانتماء إلى الأرض الجامعة أو الوطن إلى رابطة العرف والجنس أو القوم فكانت ضرباً من التعميق للفكرة الوطنية ونوعاً من الصعود من الأرض إلى الشعب الذي أنصهر عليها في قوميـة واحدة وحصل ذلك بدافع التنافس بين الشعوب الأوروبيـــة التي استيقظت ونهضت بعد اتصالها بالحضارة الاسلامية وشعرت بذاتيتها. وكان الاحتكاك بـين هذه الشعوب في مجال السلم والحرب وفي مجال التنافس الاستعماري في الخـارج سبباً في تقوية هذا الشعور ولا سيما الشعوب المتفوقة فعلا ببعض مواهبهـا وفي مقدمة الشعوب التي شعرت بهذا الشعور وصاغت منه مذهباً فلسفياً وسياسياً بل عقيدة حلت محل الدين أو كادت الشعب الألمـاني أو الجرمني وظهر ذلك بوضوح في تصرفات الشعب الالماني وفي المجال السياسي منذ عهـد بسمارك حتى عهـد هتلر وعلى لسان مفكريهم وادبائهم وكان الفيلسوف والاستاذ الجامعي (فيختـه) أقوى من عـبر عن هذا المذهب في القرن التاسع عشر وكان نداؤه للشعب الألماني ذا أثر عميق في الشعب كما كانت لـــه كذلك أصداء وآثار في شعوب أخرى .

لقد كانت هذه الفلسفة في أوربا أو في بعض شعوبها ولا سيما الشعب الألماني مظهراً للشعور بالتفوق ومسوغاً للاستعلاء على الغير وبديلاً عن العقيدة الدينية التي ضعفت أو فقدت على الأقل في المجال الاجتماعي العام بعد أن انحسرت الى

مجال المشاعر الفردية الخاصة وفقدت قدرتها على الدفع وعلى الربط الاجتماعي وهذا ما كان بالضبط بالنسبة إلى النصرانية في أوربا إذ عجزت عن أن تكون دافعاً للنهضة الفكرية والاجتماعية ولا سيما بعد التقدم العلمى والصناعي وفقدت حتى إنسجامها مع هذه النهضة .

وتتلخص النظرة الالمانية للقومية التي غدت فلسفة الأمة الالمانية كما قلنا من عهد بسمارك الى عهد هتلر في اعتبار الأمة أساساً لا الفرد. وفي تمجيد القومية وجعلها المثل الأعلى واتخاذها هدفاً للحياة وغاية للوجود ففي سبيلها وحدها تكون التضحية وفي سبيل مجدها وعظمتها وإعلائها فوق كل شيء وكل موجود يكون الكفاح والخلود للأمة وخصائصها وليس الفرد إلا خادماً مطيعاً لها وجندياً في سبيلها. وهي تفرض عليه خصائصها التي تتجسد في أبطالها وزعمائها فلا مجال للحرية والاختيار. فالعلم والفلسفة والأدب والفن كلها في خدمة القومية . أما الدين ومثله وقيمه فليس إلا جانباً من جوانب القومية ، هذا إذا كان متصل النسب بها غير غريب عنها منسجماً مع خصائصها واتجاهاتها، واما إذا لم يحقق هذه الشروط فلا مكان له فيها .

هذه خلاصة عن الفكرة أو الفلسفة القومية عند الألمان . وقد انفردوا بهذا التفكير المتطرف بسبب ظروف خاصة بهم . منها تألب الشعوب المحيطة بهم عليهم ، وخاصة فرنسا وشعورهم بالتفوق الفكري والصناعي على غيرهم من شعوب أوربا وربما كان الانكليز لا يقلون عنهم في كبريائهم وشعورهم بالتفوق على غيرهم وخاصة في عصر قوتهم ولكنهم لم يصوغوا هذا الشعور في فلسفة يلقنونها ابناءهم .

ان هذه الفلسفة التي راجت في المانيا في عهد من العهود كانت في الواقع فلسفة مؤقتة وعابرة أملتها ظروف خاصة ولذلك لم تنتشر في أوربا نفسها

إنتشاراً عاماً بل لم تستطع أن تستمر في المانيا نفسها. ذلك ان التطور الحضاري في أوربا نفسها اتجه اتجاهاً معاكساً لها فقد اتجه نحو التقاء الشعوب على صعيد مشترك لا إنعزالها في كهف تعبد فيه نفسها. ونحو تعاونها على أسس إنسانية مشتركة وفي مجالات الفكر والعلم والاقتصاد وغيرها .

وإذا كانت هذه الفلسفة القومية أو العقيدة القومية كما ينظرون اليهـا لهم أنفسهم طريقاً لحشد طاقات الأمة الألمانية وتعبئة قواها المادية والمعنوية ووسيلة لبث روح البذل والتضحية فانها كانت في الوقت نفسه سبباً لتألب الشعوب الأخرى وإثارة حقدها رداً على شعور الاستعلاء والرغبـة في التفوق وبسط النفوذ والسلطان وازدراء الروابط الانسانية والقيم الخلقية وكانت النتيجة هزيمة سحقت الشعب الالماني سحقاً ودمرت كل ما بناه من انتاج ضخم وما كلفه عرقاً ودماً ومالاً وأبقته حتى الآن بعد مضي ربع قرن تحت وطأة الدول الأربع المحتلة المنتصرة ..

تأثر الشعوب الاسلامية بالفلسفة القومية :

لا شك ان شعور الانسان بالانتماء الى قوميه شعور طبيعي فطري وهو في الانسان كشعور الارتباط في الحيوان بالقطيع من جنسه ولكن هذا الشعور في الانسان يرتقي ويتهذب – كلما تقدم الانسان فتتسع دائرته ويصبح إنسانياً ويسمو هدفه فيصبح اخلاقياً مثالياً وللأديان وتعاليمها الإلهية أثر كبير في ترقية هذا الشعور الذي نقل البشر من عصبيات القطيع الى الشعور الانساني وإلى التعارف والتعاون وكان للإسلام في تكوين هذا الشعور وإقامـة حضارة على أساسه يتعاون فيها البشر والالتفاف حول مبادىء الحق والخير . أقـول كان للإسلام في ذلك الفضل الأكبر وهذا هو الاتجاه السليم في تقدم الحضارة في مجال الحقوق الانسانية وفي مجال الأخلاق والقيم الخلقية التي يشترك فيها البشر

بل ان هذه الخطوة في الانتقال من مرحلة القبلية والقومية الى مرحلة الانسانية والتعاون الانساني هي أعظم خطوة في تاريخ البشرية والحضارة ولا يعدلها أي تقدم علمي او اختراع صناعي بل ان كل تقدم علمي أو صناعي دونها ليس له جدوى بل قد يكون إداة تعين على التنازع والقتال بين الاقوام إذا لم ينشأ الشعور الانساني والتعاون المتولد عنه .

موقف الاسلام

ولا بد لي هنا قبل بيان تأثر الشعوب الاسلامية بالتيـــار القومي وفلسفته الأوروبية من بيان موقف الاسلام في موضع القوميات .

ان الاسلام لا يدعو إلى إزالة القوميات بأعتبارها أمراً بل واقعاً بل انه يدعو الى التعاون بينها والإلتفاف حول مبدأ يسمو فوقها جميعاً ويجمع بينهـا وهذا المبدأ هو وحـــدة الاصل البشري – والمساواة بين البشر على اختلاف قومياتهم بناء على هذا واشتراكهم في الخضوع لخالق الكون والوجـــود وفي العبودية ومسؤليتهم تجاهه وتحملهم إمانة الاستخلاف الإلهي التي كرمت بني آدم والسعي لتنفيذ التعاليم التي جاء بها الإسلام وهو آخر وحي إلهي منزل والتي تدور لا على العصبيات الخاصة بل على الحق والعدل والخير وسائر القيم الخلقية الرفيعة التي يتساوى البشر أمامها ويمكن أن يتعـاونوا على أساسها . وهكذا يتم التنسيق بين القوميات دون إزالتها فالله خلق البشر وجعلهم (شعوباً وقبائل) وجعل من آياته (اختلاف السنتهم) وليس اختلاف الألسنة واللغات إلا مظهراً من مظاهر اختلاف القوميات ولكنهم جميعاً مشتركون في مدلول عام ينطبق عليهم وعبر عنه القرآن بلفظ (الناس) و (الانسان) وجعل الخطاب دائراً حوله ومتوجهاً اليه .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الفكرة أجمل وأعمق تعبير في قوله تعالى:

﴿ يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ . ويتعارض مع هذا الموقف الانساني والكوني العام الذي يحدد موقع الإنسان في الوجود العام في صلته بالبشر والكون والإله الخالق لهما والذي يحدد المثل الأعلى على الواجب في سير الانسان نحو تحقيق الهدف الانساني في مسيرة الحضارة (أو قول) يتعارض مع هذا الموقف اتخاذ القومية غاية نهائية ورابطة عليا وفلسفة في الحياة أو عقيدة .

اطوار تأثر المسلمين بالفلسفة القومية والدوافع الموجهة :

ان تأثر المسلمين بالفكرة القومية وبروز الشعور القومي في حياتهم في العصر الحديث مر بمراحل متعددة واتخذ صيغاً واشكالاً مختلفة كان بعضها في الحدود التي لا يتعارض فيها مع الإسلام وبلغ بعضها الآخر درجة المزاحمة للاسلام على انه عقيدة بل مجافاته ومعاداته ومضاهاته بعقيدة تجعل من القومية عقيدة تتعارض مع الاسلام تعارضاً جذرياً وكان لكل مرحلة ولكل صيغة اتخذها هذا الشعور أو الفكرة أسباب ودوافع طبيعية تارة ومصطنعة تارة أخرى .

١ - ففي أواخر العهد العثماني كان الاتصال بين الدولة العثمانية والمانيا اتصالاً وثيقاً في المجال السياسي والتجاري ، والثقافي ودرس في المانيا طلاب من الأتراك والعرب وغيرهم، وانتقلت الثقافة الالمانية عن هذا الطريق الى المجتمع الاسلامي . وكانت الفلسفة القومية في المانيا ظاهرة عالية على ثقافتهم فتأثر بهذه الفكرة عدد من مثقفي الأتراك واتجهوا نحو تكوين الحركة الطورانية أو حركة القومية التركية منسلخين بذلك عن التيار الاسلامي العام واخذوا ينظرون الى الشعوب المجتمعة والمتعاونة معهم في إطار الدولة العثمانية القائمة من

حيث المبدأ على الرابطة الاسلامية نظرة السيد الحاكم المستعلي لا نظرة الاخوة الاسلامية التي ابتعدوا عنها. وهؤلاء هم الذين تكونت منهم حركة تركيا الفتاة والاتحاد والترقي وانتهى بهم الامر الى الغاء الخلافة واقصاء الاسلام واللغة والحروف العربية ومجافاة العرب ومحاولة تتريك العناصر الأخرى ، وهي الحركة التي تزعمها من بعدهم مصطفى كمال وحزبه .

٢ - ان نهضة الشعوب التي كانت تؤلف الدولة العثمانيـــة بسبب اتصالهم بالحضارة الغربية أيقظ فيهم وعياً وأشعرهم بما في الدولة من تأخر وظلم واقترن هذا الوعي بظهور الشعور القومي عند الاتراك والرغبة في الاستعلاء بدافع من هذا الشعور فحدث بين هذه الشعوب تنافس أشعر كلا منها بذاتيته القومية وأيقظ فيه العصبية لها وامتزج هـذا الشعور بالمطالبة برفع الظلم والمشاركـة الشعبية في الحكم والمطالبة بالحـكم الذاتي .

٣ - وجدت الدول الاوروبية ولا سيما فرنسا وإنكلترا وهما أقوى دول أوربا يومئذ من جهـــة والمكونتان لامبراطورية استعمارية ينطوي تحت حكمها شعوب إسلامية كثيرة وجدت في هذا الجو بالذات مجالاً لاضعاف الرابطة الاسلامية بين هذه الشعوب ، بل لتهديمها وازالتها نهائياً عن طريق إثارة العصبيات القومية ، واتخاذالقوة أساساً لاقامة المجتمع ،فان هذا التفريق وإزالة صعيد الالتقاء المشترك بين الشعوب الاسلامية من مصلحتها. وقدثبت ان فرنسا وانكلترا دفعتافكرةالقوميات ومنها فكرة القومية العربية دفعاً قوياً ثم تبعتهما أمريكا في ذلك منذ أواخر العهدالعثماني. وليرجع من يريد الأدلة المؤيدة لذلك الى كتاب جورج انطونيوس «يقظة العرب» وإلى كتاب «تركيا الفتاة» المترجم عن اللغة

الانكليزية والذي قدم له الأستاذ نقولا زيادة من الجامعة الامريكية ببيروت .

٤ – لقد كان للمحافل الماسونية في فرنسا وإيطاليا أثر في تشجيع انتشار هذه الفلسفة الجديدة في البلاد الاسلامية فقد فتحت أبواب محافلها في المدن الأوروبية لعقد الاجتماعات التي كان هدفها تقوية الشعور القومي في مقابل الشعور الاسلامي لإقامة المجتمع المقبل على أساس المبدأ القومي ، كما يبين مؤلف كتاب «تركيا الفتاة» محاولاً الدفاع عن الماسونية ومن وراءها في عملها هذا وتبرئة أصحابها ..

٥ – رأى بعض الذين لا يدينون بالإسلام من ابناء العروبة ان هذا هو الطريق المؤدي الى إزالة الوحشة والتنافر والعصبية بين ابناء العروبة على اختلاف اديانهم وانبرى بعضهم للتعبير عن هذه الفكرة في مجال الأدب والفكر والسياسة بقيادة هذا الاتجاه دون أن يدركوا خطأ الاستمرار في هذا الاتجاه وخطورة نتائجه بالنسبه إلى العرب وانه ينتهي الى إزالة القاعدة الخلقية الروحية التي يقوم عليها بناء مجتمعهم دون ان تستطيع القومية باعتبارها فلسفة وعقيدة أن تمدهم ببديل عنها كما عجزت عن ذلك في دول أوروبا التي كانت أعمق وعياً وتفكيراً لانها ترتد نهائياً كفلسفة الى وثنية ترجع بالانسانية الى الوراء وإلى تفكير أسطوري ضيق الإطار ولم يدركوا أن طريق إزالة الشقاق والعصبية لا يكون بالأخذ بفلسفة خاطئة تبنى على حقيقة ناقصة ، فتولد عقيدة باطلة. أقول هذا بالنسبة لمن كانت نيتهم حسنة ولكن ضلوا الطريق وأما الذين كان لهم من وراء ذلك مآرب أخرى وتعاون مع آخرين من غير العرب من فرنسيين أو انكليز أو أمريكيين من سياسيين او مستشرقين أو منهما مجتمعين.. فقد أخذت الفكرة القومية

اشكالاً وصيغاً مختلفة فكانت شعوراً طبيعياً في بداية الأمر لا يتجاوز شعور الانسان بانتمائه الى أسرة معينة، أو قبيلة أو نسب وهو في هذه الحدود أمر طبيعي لا يتعارض مع الشعور الإنساني ولا مع الأخلاق ولا مع العقيدة الدينية .

ثم اشتد هذا الشعور في نطاق ظروف معينة بدأت من رد الفعل عند العرب مثلاً تجاه العصبية التركية التي غذاها ملاحدة الأتراك من جماعة حركة تركيا الفتاة والاتحاد والترقي، واستمرت واشتدت في عهد الاستعمار الفرنسي والانكليزي لبعض البلاد العربية. واتخذ هذا الشعور حينئذ شكل مذهب أو خطة سياسية هدفها توحيد البلاد العربية وتحريرها. وكانت هذه الصيغة في الحقيقة تمهيداً لمرحلة ثالثة خطيرة وهي اتخاذ القومية عند ابناء الشعوب الاسلامية من عرب واتراك واكراد وغيرهم مبدأ بل فلسفة بل عقيدة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة واليكم بعض تعابير هذا الاتجاه :

« القومية بالنسبة الينا نحن القوميين العرب دين له جنته وناره ولكن في هذه الدنيا» (على ناصر الدين)، « لا ينهض العرب حتى تصبح العربية أو المبدأ العربي ديناً يغارون عليه كما يغار المسلمون على القرآن الكريم والمسيحيون على انجيل المسيح الرحيم..» (عمر فاخوري) .

وتجد مثل هذا التعبير في كتاب (مع القومية العربية) وغيره .

وليس الدين في نظر هذا الاتجاه إلا جزء من القومية — هذا اذا قبل — والقومية هي الفكرة الكلية الشاملة فالاسلام مثلاً بالنسبة الى العرب في هـذه الفلسفة مرحله ماضية من تاريخ الأمة العربية هو كما يزعم بعض فلاسفة هـذه الفكرة تجربة عربية وهي في نظرهم ليست الأخيرة ..

وهكذا فان تيار الفكرة القومية ابتداء من حيث انتهت الفكرة الوطنية

فقط إقصاء الإسلام بل تفريغ القضية السياسية الديمقراطية فكانت مهمته ليس والاجتماعية بوجه عام من المحتوى الإسلامي واحلال فلسفة اخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته واستبدال رابطة أخرى برابطته لعزل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض، عزلاً نهائياً، بحيث تكون صلة بعضها ببعض كصلتها بأي شعب من الشعوب الأخرى التي تدين بالوثنية أو الماركسية أو غيرها والتي لم تكن تربطها بها أي رابطة بذلك تنسف الجسور التي تصل بين الشعوب الاسلامية ويلغى ذلك التاريخ الطويل وتمحي روابط الثقافة المشتركة ولغة الدين المشترك والقيم الخلقية المشتركة وتلغى بذلك تلك الأخوة الإسلامية ..

ولقد كان هذا التيار في خلال هذه الحقبة التي امتدت من أواخر العهد العثماني حتى عهدنا الحديث عاملاً للتفريغ ليمهد لفكرة وفلسفة اشتد ساعدها وقوي شأنها في العالم الغربي لتحل بمفاهيمها وأفكارها محل الاسلام الذي أقصي أولاً ثم اخرج محتواه ومضمونه من نطاق التفكير العام والقضية الاجتماعية وجاء بعد ذلك دور دول أخرى لتستفيد من هذا الظرف الجديد سواء من جهة النفوذ السياسي أو الغزو الفكري العقائدي وهي الدول التي تدين بالماركسية :

التيار الماركسي الشيوعي .

ظهر في أوربا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين تيار جديد عقائدي فكري وسياسي اجتماعي في آن واحد وهو تيار الفلسفة الماركسية. وكان رد فعل للرأسمالية من الوجهة الاقتصادية في أوربا واستمرار للتفكير العقلي المادي نفسه وكان ظهوره ونجاحه في بلد اوربي متأخر ، ثم في بلد آسيوي متأخر كذلك هو الصين . وكانت القوة التي دعمته في بداية الامر هي الجماهير الشعبية الجاهلة غير الواعية ،وتحركه فئة قليلة من المثقفين المفكرين الذين استطاعوا أن يقلبوا حقد الطبقات المظلومة في أوربا يومئذ وعواطف الثأر والانتقام الى

فلسفة ويتخذوا منها عقيدة تدفعهم لقلب الأنظمة التي يشكون منها والثورة عليها . وليس من قبيل المصادفات أن يكون من مقررات اليهود السرية في بروتوكولات حكماء صهيون في حركتهم العمالية التي كانت تدار في أوربا إثارة جماهير الشعوب على حكامهم وعلى خاصتهم بحجة الظلم أو الفساد وإن تاريخ تلك المقررات يصادف تماماً تاريخ قيام كارل ماركس اليهودي بصياغة فكرته التي تدعو جماهير العمال وجماهير الصعاليك او غير المالكين الى الانتفاض على انظمة الحكم والحكام والى ثورة الدهماء « العامة » على الخاصة من مفكرين ونابغين وعلى المالكين .

ان الموافقة بين التاريخين تاريخ قرار حكماء صهيون في حكومتهم العالمية السرية وتاريخ قيام ماركس بدعوته أمر يلفت النظر ولا سيما ان نسبة اليهود في إقامة الدولة الشيوعية الماركسية الأولى كانت نسبة كبيرة جداً وأن اليهود في أوربا هم المؤسسون قبل الشيوعية وبعدها للأحزاب الاشتراكية فيها ، وانهم في كل بلد هم الذين رعوا ديانة ماركس وبشروا بها حتى الأغنياء الكبار منهم .

لقد اشتد هذا التيار في أوربا قبل أن يصل إلينا وأصبح يتجسد من الوجهة السياسية والبشرية في مجموع الشعوب الأكثر فتوة والأحدث عهداً في التحضر في مقابل الدول المتحضرة التي أخذت تشيخ وتهرم رغم قوتها ، وتفشى فيها الترف والانحلال وقام التنافس بين هاتين المجموعتين على النقود وامتداد السلطان في آفاق المعمورة ، إحداهما مجموعة شعوب شرق أوربا والأخرى مجموعة شعوب غرب أوربا حتى أمريكا التي هي في الأصل امتداد لها وقد كان لتسلل هذا التيار الى الشعوب الاسلامية وتأثيره فيها أسباب نذكر أهمها :

الفراغ الذي أحدثه التياران السابقان الديمقراطي الوطني والقومي في

١ - المجتمع الإسلامي لدى أكثر الشعوب الإسلامية وذلك بالعمليتين اللتين وصفناهما سابقاً ، عملية الإقصاء وعملية التفريغ . فإن الإسلام، وقد ابعد أهله عن فهمه ووعي أهدافه ومقاصده بما ران عليهم من الجمود في عصور الانحطاط وما أحدثوه من نقص وتشويه ، كان غائباً عن الساحة في المجال الفكري الثقافي والمجال السياسي الاجتماعي ، وكان الإسلام العظيم برسالته الحضارية الإنسانية قد انحصر في بعض الشعائر والمناسك وفي بعض العادات والتقاليد الدخيلة أحياناً ، وفي جزئيات صغيرة متفرقة وأصبح أصحابه جماعات متعددة تتفرق مذاهب وطرقاً بالرغم من محاولات الأحياء التي كانت تستهدف بعث الإسلام من العقول والنفوس والمجتمع وليس السبب لنقص أو عجز من الإسلام نفسه ولكن تلك التيارات الوافدة كانت كاللص الأسرع من صاحب الدار لاحتلالها والأكثر استعداداً واستباقاً للوصول إلى الهدف .

٢ - أمر آخر كان له كذلك أثره وهو مهارة الشيوعية العالمية ودولها في استغلال نفور الشعوب الاسلامية من دول الغرب المستعمرة ومذاهبها الفكرية ورغبتها في محاربة هذه الدول التي هي نفسها عدوة الشعوب الإسلامية لما ذاقت من ويلات إستعمارها، فتقدمت في صورة الصديق المعين ، وقدمت مذاهبها بديلاً عن تلك المذاهب التي نفر الناس من أصحابها وسرت عدوى النفور إلى الأفكار والمذاهب المتصلة بها .

ان هذا الجو النفسي كان في غاية الأهمية بالنسبة للدول الشيوعية

التي ابتدأت تنافس تلك الدول في بسط النفوذ ومد السلطان ولكن بأسماء أخرى وأساليب جديدة . ولا شك ان جـــدة هذه الفلسفة وانتصار أصحاب هذا المذهب في الميدان العسكري والسياسي منذ الحرب العالمية الثانية وحماسة أصحابه له لما لهم فيه كذلك من المنافع والمصالح والمكاسب كل ذلك كان ذا تأثير قوي وكان مدده المادي في المال والرجال والدول قوياً كذلك .

٣ - أما استغلال بعض النقائص والمفاسد والمظالم في المجتمعات الإسلامية والتي يوجد أمثالها في كل بلد وفي كل عصر ، بل ربما أكثر منها فقد حصل ولكنه في رأينا لم يكن في المقام الأول ، ومع ذلك فقـد كان من جملة ما تذرعت به الفلسفة الشيوعية الماركسية لنشرها في طبقات الجمهور والمثقفين .

٤ - أضف إلى ذلك كله مهارة الدعاية ووسائلها المدروسة المخطط لها التي استطاعت أحياناً أن تخفي كثيراً من الحقائق والوقائـع وأن تنشر كثيراً من المغالطات .

تأثير التيار الماركسي الشيوعي وخطورة نتائجه :

١ - من أهم نتائج سريان هـــذا التيار وأهدافه فك ارتباط الشعوب الإسلامية بعضها ببعض بل الأقطار العربية نفسهـــا . وذلك بفك ارتباطها بالإسلام باعتباره الرابطة والعقيدة الجامعـــة والثقافة المشتركة . وربط كل منها على انفراد بمجموعة الشعوب الشيوعية الماركسية ، وذلك عن طريق ربطهـــا بالتيار الماركسي العالمي

العقيدة الشيوعية . وبذلك تنتقل الشعوب الإسلامية من التبعية للغرب ثقافة وسياسة الى التبعية للعالم الشيوعي . بدلاً من أن تلتقي مع نفسها على صعيد الثقافة والعقيدة الإسلامية التقاء متحرراً من كل تبعية ، وتتعاون في هذا الاطار على تكوين حضارة تحتفظ فيها بذاتيتها وتقدم للإنسانية حضارة جديدة تحفظ للإنسان كرامته وتكفل له سعادته مع رقيه المادي .

٢ - ومن نتائج انتشار هذا التيار أيضاً تحويل معاركنا الإسلامية العامة بل الخاصة بكل شعب من الشعوب الإسلامية إلى معارك مع الدول الرأسمالية فقط خدمة لنفوذ الدول الشيوعية وتصوير معركتنا في فلسطين هذه الصورة الضيقة الموجهة ، وذلك تمهيداً لحل قضية فلسطين على أساس فك ارتباط اسرائيل بالدول الغربية والوصل بين الجماهير اليهودية الاشتراكية والجماهير العربية الشيوعية الماركسية .

٣ - محاربة الإسلام باعتباره ديناً وعقيدة وأخلاقاً وتشريعاً ، واحلال الفلسفة المادية الماركسية ومفاهيمها المعارضة له معارضة جذرية في محله . ويكون ذلك عادة على مراحل يبدأ أولها من منطقين أحدهما إصلاح الظلم الاجتماعي عن طريق النظام الماركسي الاشتراكي. والثاني محاربة الاستعمارية والتوسع الاستعماري المسمى في اللغات الأجنبية بالامبريالية ، ويسكت في هذه المرحلة عن الدين في المجتمعات التي تتمسك به بل يقال أحياناً انه لا تعارض بين المذهبين ويروج ، لمثل هذا التوفيق في هذه المرحلة مع الكلام عن استغلال الدين واضراره

ليتم الانتقال الى محاربة الدين جذرياً في أصوله الاعتقادية أياً كان ذلك الدين . ومن واجب الدولة الشيوعية محاربة الدين ومنع انتشاره عن طريق التعليم ووسائل الاعلام ، والدعاية للدين جريمة يعاقب عليها ، في حين أن حرية الالحاد والدعاية اللادينية مضمونة بنص الدستور ، ويغطى هذا بالسماح بإقامة الشعائر الدينية وباستغلال بعض المظاهر الدينية للدعاية في الأوساط التي لا يزال للدين فيها تأثير .

ليس المجال هنا للكلام عن صحة نظرة الإسلام إلى الوجود والكون وقوتها أمام الفلسفة المادية المتهافتة أمام النقد ، وليس كذلك هنا مجال الكلام عن معالجة الإسلام للظلم الاجتماعي وللمشكلة الاقتصادية وطريقته في بناء نظام يجمع بين العدالة وحسن التوزيع والضمان الاجتماعي للفرد من جهة ومراعاة اختلاف المواهب والطاقات وفسح المجال أمامها للعمل والإنتاج من غير ظلم للآخرين ، وليس هنا كذلك مجال الكلام عن طريق إقامة حضارة إسلامية من جديد لتكون رائدة لحضارات العصر وعن طريق جمع الشعوب الإسلامية على صعيد الإسلام الفكري والاقتصادي والسياسي في ظروف العصر الحاضر ، فكل هذه الموضوعات تحتاج أيضاً إلى تفصيل وبيان .

خلاصة وعلاج :

يتبين لنا مما سبق أن تيارات عالمية ثلاثة غزت العالم الإسلامي منذ نحو

من قرنين غزواً مستمراً ابتداء من التيار الديمقراطي الوطني عن طريق فرنسا وانكلترا ثم لحقت بهما وخلفتهما امريكا إلى التيار القومي عن طريق المانيا وثقافتها ثم التيار الماركسي الشيوعي عن طريـــق روسيا . فاجتمعت بذلك التيارات والمذاهب الحديثة بفروعها المتفرعة عنها . واجتمعت علينـــا كذلك دول العالم الحديث الكبرى كلها للإحاطة بنا وفك روابطنا وافنـــاء ذاتيتنا وتقويض كياننا وهدم عقيدتنا وأحب هنا ان استدرك فأقول لئلا يتنطع متنطع :

١ – ليس الهدف مما أقول أنه لا محـل عندنا لحب الوطن وحرية الإنسان التي هي عنصر من عناصر المذهب الأول . وليس مغزى مـا أقول كذلك أننـا لا نعترف بوجود الشعوب وقومياتها وحفظها بالدفاع عن كيانهـا وحقوقها ، ولا يفهم كذلك من نقد الماركسية الاعراض عن حل مشكلة الظلم السياسي أو الاقتصادي أو السكوت عنهـا ، فان الإسلام الذي ندين به لا يقبل منا مثل هـــذا السكوت ولكن كما قلت آنفاً ليس هذا الموضوع موضع الكلام عن طريقتنا الإسلامية في حل هذه المشكلة .

ولكن القضية الأساسية هي أن معالجة كل قضيـــة من القضايا الجانبية والجزئية إنما تكون في إطار مذهب شامل نأخذ به يضع كل قيمه في مكانها ، فلسفته ونظامه ويحل كل مشاكله على طريقته الخاصة وهذا هو الإسلام . وللإسلام كيانه المستقل الخاص به .

٢ – الأمر الثاني الذي أحب أن ألفت النظر اليه هو أن موقفنا العقائدي من هذه المذاهب لا يعني حتماً عداءنا للدول التي تدين بها . فالعلاقة

السياسية والاقتصادية مع هـذه الدول تخضع لاعتبارات أخرى في المسالمة والمحاربة والتعامل والتجارة .

الاخطار المحدقة بالشعوب الاسلامية :

نستطيع أن نقول بعد هذا الاستعراض أن الغزو العقائدي للعالم الإسلامي من قبل العالم الغربي مستمر وأن تحرر بعض البـــلاد الإسلامية من الاستعمار الظاهري والخارجي لا يعني أبداً توقف هذا الغزو .

إن جهود هذه الدول جهود مركزة مستمرة تنشر ثقافتهـا ومذاهبها عن طريق المدارس والمعاهد والجامعات والمؤسسات منذ إنشاء الكلية الانجيلية في بيروت، التي سميت فيما بعد بالجامعة الأمريكية ومدارس إيدبيك في تركيا ومصر وسورية وغيرها ، وأمثالها في الهند وإيران واندونيسيا والأفغـان عن طريق البعثات الثقافية من شتى البلدان الاسلامية المنتشرة في أمريكا وانكلترا وروسيا وغيرها ، وعن طريق امدادنا بالبرامج والمناهج خاصـــة في المواد النظرية وبالكتب والمجلات التي تصدرها دور نشر كبيرة في جميع العالم لامداد هـــذه التيارات والمذاهب وعن طريق الملحقين الثقافيين والمراكز الثقافية، وعن طريق أبناء المسلمين الذين رضعوا جيلاً بعد جيل لبان هذه الثقافات بمذاهبها وتياراتها وعن طريق جميع وسائل الاعـــلام والدعاية والصحف والمجلات ، إن الخطر محدق بالمسلمين من كل صوب لتحطيم اسلامهم قـُرب كل بلد، وتسلل إلى كل بيت هذا عدا عن الخطر الأخلاقي والخطر السياسي وما يتبعها ، فماذا صنع المسلمون لصد هذا الخطر وماذا هم فاعلون ، واسمحوا لي أخيراً أن ألخص للعلاج بكلمات موجزة جداً :

١ – صياغة العقائد والمبادىء الاسلامية صياغة قوية مركزة مستمدة من الكتاب والسنة تتناسب في طريقتها وأسلوبها مع البيئة الفكرية المعاصرة دون أي تغيير في المحتوى والمضمون لتقف هذه الصياغة أمام المذاهب العقائدية الحديثة وعدم الاكتفاء مطلقاً بكتب ألفت لغير هذا العصر .

٢ – ابراز الأنظمة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والتربوية التي تنبثق من العقيدة الاسلامية المصوغة القوية الواضحة التي وضعناها بحيث تتميز معالم الاسلام في هذه المجالات لتنهار أمامها الأنظمة الأخرى المولدة من تلك المذاهب العقائدية .

٣ – عدم إثارة معارك جانبية وجزئية بين المسلمين المثقفين على أصول الاسلام وعقائده والعناية بالكليات من العقائد والأنظمة أكثر من الجزئيات .

٤ – التخطيط لنشر الاسلام كمذهب عقائدي متميز تتفرع عنه أنظمته الاجتماعية والخلقية في جميع مواد التعليم وخاصة في العلوم النظرية ، كالفلسفة والاجتماع والتربية وعلم النفس والحقوق والآداب وفي جميع مستويات التعليم وتأسيس مراكز بحث خاصة للتخطيط والصياغة وإمداد المدارس والمعاهد والجامعات .

٥ – اتخاذ جميع وسائل الاعلام المعروفة وسيلة تنفذ هذا التخطيط ، والتبشير به والدعوة إليه ، واعتبار وزارات ودوائر الاعلام مراكز عقائدية

أساسية لا يدخل فيها إلا كل من تحقق فيـــه الايمان الكامل العميق بالمبدأ الاسلامي والوعي العميق والثقافة المناسبة لذلك .

نسأل الله تعالى أن يعيننا جميعاً على الاسهام في معركة الدفاع عن الاسلام وتثبيت دعائمه وأن نشعر بمسؤوليتنا الخطرة في هذه المعركة فنكون بالجهاد فيها من أوليائه وأنصاره والله حسبنا وعليـه توكلنا واعتمدنا والحمد لله رب العالمين .

محمد المبارك